﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النّحل: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما كانت الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل: 26] قد ذكر الله تعالى فيها عاقبة الذين مكروا، وكان هذا العقاب متعلِّقًا بالدنيا، جاءت بعد ذلك هذه الآية محل التفسير: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾؛ لتبيِّن أن عقابهم هذا في الدُّنيا ليس يغني عن عقابهم في الآخرة من شيء[1]، بل إن عقاب الآخرة أشد وأنكى، لأنّه يجمع بين الإيلام والخزي والفضيحة العامة أمام كلّ الخلائق، وذلك حين يسألهم ربُّهم، وهو أعلم بحالهم، وبأنّه لا جواب لهم: ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾؟ فيردّ عنهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ما حكته الآية ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

عـذاب الدّنيا شديد، ولكنّ عـذاب الآخـرة أشـدّ وأنـكى؛ لـجـمـعـه بين الإيلام والخزي

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾: أصْلُ الخِزْي: ذلٌّ يُسْتَحى مِنْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[2]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّه؛ أيْ: أبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[3]، والخِزْيُ: الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 7/ 233.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).

خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فضِيحَةً، وخَزِيَ الرّجلُ خِزْيًا مِنَ الهَوان، وخَزِيَ يَخْزَى خَزايةً مِنَ الاسْتِحْياءِ[1]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[2]، والمقصود بالخزي في الآية: الذُّلُّ والإهانةُ أو العذاب بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: 192][3].

2) ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: أصل (شرك): الشّين والرّاء والكاف أصلانِ، أحدُهما يدلُّ على مقارنَة وخِلافِ انفراد، والآخر يدلُّ على امتدادٍ واستقامة، فالأول الشِّرْكة، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْن لا يَنفرِدُ به أحدُهُما. يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرْتَ شَريكَهُ، وأشْرَكْتُ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ[4]، والشِّرْكُ: يأْتي بِمعنى المُشارَكَة، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَيْن، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأمرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمتُ إلَيْهِ وخالَطْتُهُ، وصِرْتُ شَريكًا لَهُ[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: النُّظراء والأنداد[6].

3) ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾: (شقّ): أصْلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَة. تَقولُ شَقَقْتُ الشَّيْءَ أشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبِيَدِهِ شُقوقٌ، وبالدّابَّةِ شُقاقٌ، والأصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظِيَّةٌ تُشَظَّى مِنْ لَوْحٍ أوْ خَشَبَةٍ[7]، والشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالفَهُ[8]، ويُطلَقُ الشِّقاقُ على العداوة بينَ فريقين؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ مِن فرقتي العداوة قصد شقًّا، أي: ناحية غير شقِّ صاحبه، كأنَّ كلَّ فريقٍ يحرصُ على ما يشقُّ على الآخر[9]، والمقصودُ بالمُشاقَّةِ في الآيةِ: المُشادَّةُ في الخُصومَةِ، كأنَّها خُصومَةٌ لا سَبيلَ معها إلى الوِفاقِ، والمرادُ: تُعاندونَ من يَدعوكُم إلى التَّوحيدِ[10].

4) ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾: أصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[11]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 168.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (شقّ).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 136.
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).

عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[1]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأْتي بِمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[2]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ، والفُجورُ، والبَلاءُ، والعَذابُ، والشَّتْمُ، والشِدَّةُ، والقَتْلُ[3]، والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الضُّرُّ والعَذابُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يـوم القيامة يكون الخزي والعذاب على مَن كفر وشاقّ الله ورسوله

بعد أنَّ بيَّن اللّه تعالى ما حلَّ بأصحابِ المكر في الدُّنيا من العذاب والهلاك، بيَّن حالهم في الآخرة فقال: ثُمَّ يومَ القيامةِ يُذِلُّ اللّهُ الكافرينَ ويُهينُهم بالعذابِ، ويقولُ لهُم حينَ ورودهم عليه على سَبيل الاستهزاء والسُّخرية: أينَ الَّذين كُنتُم تَعبُدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركائي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وتُعادونَ اللّهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؟! فلْيَدفَعوا عنكم هذا العَذابَ، قال الذينَ آتاهم اللّهُ العِلمَ: إنَّ الذِّلَّةَ والهَوانَ يومَ القيامةِ والعذابَ كائِنٌ على الكافِرينَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية الكريمة:

العطف على وعيد المشركين المتوعَّدين، بسوء العذاب يوم الدّين

جملة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ معطوفة على قوله تعالى فيما سبق: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النحل: 25]؛ على أنّها مِن جملة وعيد المشركين المتوعَّدين المُخبَر عنهم، وأنّه تكملة له[5].

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة على التّرتيب:

﴿ثُمَّ﴾ حرفُ عطفٍ يدلُّ على التَّرتيب والتَّراخي الزَّمني، وهذا

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (سوأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 208، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 98، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 567، والمراغي، تفسير المراغي: 14/ 71.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.

أصل معناه، وقد يُستعان به للدَّلالة على التَّرتيب والتَّراخي في الرُّتبة، وهو هنا مُحتملٌ لكليهما، أي: للتَّرتيب الرُّتبي، على معنى: إنَّ خزي الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدُّنيا[1]، كما يدل له قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ [الرعد: 34] وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر: 26].

(ثم) للتراخي الرتبي مع احتمالها للزّمني أيضًا

ويمكن حملها على الترتيب الزَّمني، وهو أصل معناها، على معنى: أنَّه سبحانه قد يمهلهم لكنَّه قطعًا لن يُهملهم، أي: هي دالَّة على الإمهال من غير إهمال[2]، كما يدلّ له قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: 42].

إيثار التركيب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دون مرادفاتها:

سرُّ إيثار التَّعبير بـ (يوم القيامة) كونه منصوصًا عليه قبلًا

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دون غيره كـ (الآخرة) مثلًا، لقرب ذكره بنفس الاسم دون غيره في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النحل: 25]، وفيه مِنَ الدَّلالة أنَّ هذا اليوم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هو نفسه المقصود هنا؛ لأنَّ المعرفة عندما تتكرّر يكون الثّاني عين الأوّل.

سرّ تقديم الظرف ﴿يَوْمَ﴾:

تقديم الظّرف للاهتمام بيوم القيامة والتّنبيه على أهواله

تقديم الظّرف ﴿يَوْمَ﴾ هو الاهتمام بيوم القيامة؛ والتّنبيه إلى ما فيه مِن أهوال ليُحذَر؛ لأنَّه يوم الأحوال الأبديَّة فما فيه من العذاب مهول للسّامعين[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 135.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُخْزِيهِمْ﴾:

التّعبير بفعل الخزي يدلّ على عموم ما يُكرَه

عبَّر النَّظم الكريم بالفعل ﴿يُخْزِيهِمْ﴾؛ لما فيه مِن دلالة على عموم جميع المكاره الّتي تحلّ بهم حال العقاب، ولما فيه مِن جمعٍ بين الإهانة بالفعل، والإهانة بالقول؛ بالتّقريع والتّوبيخ[1].

سرُّ صوغ ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ مضارعًا:

تجدّدٌ وتكرار، يستلزمه حالهم في دار القرار

في التّعبير عن خزيهم بصيغة المضارع - فضلًا عن معناه المستقبليّ - دلالة على تجدده وتكرّره في مواقف القيامة المتعدّدة، وزمانها الممتدّ.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾:

الجمع بين الفعل والقول مزيد إذلال

الواو عاطفة؛ عطفت فعل القول على فعل الخِزي، وجمعت بين وسمهم بالخِزي وبين تقريعهم وتوبيخهم بالقول المعبَّر عنه بالاستفهام، وفي ذلك مزيد إذلال في لحظة الحساب، وانتظار العقاب.

التّعبير عن فعل القول مضارعًا:

دلالة مضارع القول على تكرره

وفي التّعبير عن القول بصيغة المضارع - فضلًا عن معناه المستقبليّ - دلالةٌ على تجدّده، وأنّه لا يقال لهم مرَّة واحدة، بل إنَّه يتكرَّر في كلّ موقف يستدعيه، ومواقف القيامة متعدّدة كثيرة، وأمدها مستطيل.

وجه إضمار الفاعل في ﴿يُخْزِيهِمْ﴾، و﴿وَيَقُولُ﴾:

إضمار الفاعل في الفعلين يُرادُ به الله تعالى لتهويل أمرهما

في إسناد الخزي والقول إلى ضمير الذّات العليَّة في قوله: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ و﴿وَيَقُولُ﴾ ما يفيد تعظيم كلٍّ منهما وتهويله؛ ففي قوله: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ أسند النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ الفعل إلى ضمير الذّات العليَّة؛ لتهويل كلٍّ منهما وإفادة شدَّته، وعظمة ما يتعلق به مِنَ الأفعال، وما تسبَّب به أيضًا، وفي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 521.

هذا دلالة على كونه يدلّ على فضيحتهم على رؤوس الأشهاد، وقد كانوا في الدُّنيا يستنكفون عن أن يظهروا بمظهرٍ يحطُّ مِن قدرهم ومكانتهم، أو ينال مِن كبريائهم.

وكذلك دلالته على عذاب الآخرة المخزي، وليس فقط المؤلم، وهي صفة أخرى مِن صفات العذاب تدلّ على أنَّ العذاب خزي في ذاته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192]، وقد كان مِن إخزاء الله لهم أن كشف حالهم مع الأوثان التي أشركوها في العبادة مع الله تعالى، وأنَّها لا شيء وأنها تهرب منهم، ولا تجد لها مهربًا؛ ولذا قال لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾[1].

وكذلك من دلائل تعظيمه إسناد القول إلى ضمير الذات العليَّة، فإنّه يُفيد تعظيم المقول وتهويله.

دلالة الاستفهام بـ﴿أَيۡنَ﴾، في سياق الآية:

بيان أنّ الاستفهام في الجملة للتّهكّم

﴿أَيۡنَ﴾ اسم استفهام يُسأل به عنِ المكان، والمراد بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ استحضارها للشّفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء، والتّبكيت[2]؛ لأنّ الاستفهام بـ﴿أَيۡنَ﴾ يقتضي العلم بوجود مَن يحلّ في المكان، لكن لمّا كان المَقامُ هنا مقامَ تهكّم كان الاستفهام عن المكان مستعملًا في التّهكم؛ ليظهر لهم كالطَّماعِية للبحث عن آلهتهم، وهم علموا أن لا وجود لهم، ولا مكان لحلولهم[3].

نكتة جمع الشّركاء في السّياق المحكم:

لم يشركوا مع الله إلهًا واحدًا، بل آلهةً متعدّدةً

نكتة جمع الشّركاء في قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ تعود إلى كونهم لم يتّخذوا لهم مِن دون الله إلهًا واحدًا، بل آلهةً متعدّدة؛ فحق عليهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4161.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.

قول الله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: 39 - 40].

نسبة الشّركاء إلى ضمير التّكلّم العائد على الذّات العليّة:

اعتقدوا كون الآلهة شركاء لله، فوبّخهم، وتهكّم بهم

في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أضاف النّظمُ الكريمُ الشُّركاء الّذين يزعم أهل الشِّرك شراكتهم لله إلى الذّات العليّة، وهو اعتقاد فاسد للمخاطبين مِنَ المشركين؛ فهم كانوا يتّخذون هذه الآلهة شركاء لله، ويعبدونها لتشفع لهم عنده، كما قالوا ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

وعلى هذا فالإضافة في ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ حكاية لقولهم؛ لأنّهم كانوا يقولون عن آلهتهم: هم شركاء الله "فكانت الإضافة أخذًا بهذا الزَّعم تبكيتًا لهم، إذ كيف يكون المخلوق شريكًا للخالق، وكيف تكون الحجارة الّتي لا تنفع ولا تضر شريكةً للنّافع الضّار"[1].

كما أنَّ فيها استهزاءً بهم، و"زيادةً في التّوبيخ؛ لأن مظهر عظمة الله تعالى يومئذ - أيْ: يوم القيامة - للعيان يُنافي أن يكون له شريك، فالمخاطبون عالِمون حينئذ بتعذّر المشاركة"[2] فكان مفهومُ الإضافة التَّهكم والتوبيخ الشَّديديْن.

بلاغة الاستعارة التهكّميّة في لفظ الشّركاء:

السّياق مقصود به التّهكّم بهم، والسُّخرية منهم

التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ مضافًا إلى ضمير التّكلم مبني عَلَى زعم المخاطب، كما مضى ذكره، فتكون الإضافة لأدنى ملابسة[3]، أو أنّها حكاية لقول المشركين: إن آلهتهم شركاء لله، وفيه استعارة تهكميّة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162، والطيّبي، فتوح الغيب: 9/ 109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 522.

مبنيّة على "تشبيه غير الشّركاء، بالشّركاء المفروضين، بواسطة السّخرية، أي: ما لهم لا يحضرونكم - لو كانوا شركاء لله حقًا - ليدفعوا عنكم العذاب؟ أي: العذاب الذي بُيِّن استحقاقكم له، أو العذاب - الواقع عليكم - بالفعل؛ لأنّهم كانوا يقولون إن صحّ ما تقول مِنَ الحشر والعذاب فالأصنام ستشفع لنا"[1].

بلاغة الالتفات مِنَ الغيبة إلى الخطاب:

في الآية التفات مِنَ الغيبة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ﴾، وتحويل الكلام هنا هدفه زيادة توبيخهم وتقريعهم على ما كان منهم مِن اعتقاد الشّركاء لله، على معنى: عقابكم اليوم مُخزٍ، فهاتوا ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ الذين زعمتموهم لينقذوكم بقوتهم، أو ليشفعوا لكم عندي.

الـــزّيـــادة في تـوبـيـخـهـم وتقريعهم على شركهم

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إيثار التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادّعاء المشاركة[2]، وتحسيرهم على ما كان منهم، مِن مشاقَّة الأنبياء لأجلهم.

استـحـقـاقـهـم الـذَّمَّ والتّحقير بسبب شركهم الخطير

سرّ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مجموعًا:

عبَّر بفعل الكون ماضيًا فقال: ﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ باعتبار الواقع؛ لأنّ هذا التّعنيف حاصل لهم يوم القيامة، على ما كان منهم مِن شرك في الدنيا، وأما الجمع فيه، فباعتبار مجموع المخاطبين، وهم جملة المشركين الذين يشملهم الخطاب.

الـخـطـاب عن وقائع الآخرة في الدّنيا، باعتباره تحقّق وقوعه

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾:

بعد التَّعبير بفعل الكون ماضيًا، استحضر هذا الماضي بصيغة المضارع فقال: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾؛ ليجعل ذنبهم أمامهم حاضرًا، ليزدادوا

التَّعبير بالمضارع لاسـتـحـضـار الحالة الماضية

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 136.

حسرة على أنَّهم شاقّوا وعادَوا لأجل مَن تخلّى عنهم وقت الحاجة، وقد كانوا فيهم يطمعون ومنهم يرجون، ومعنى: ﴿تُشَٰقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾، أي: تُعادون المؤمنين مُعاداةً شديدةً، وتُخاصمونهم كألدِّ ما يكون الخصام، والمُشاقَّةُ عبارة عن كون أحد الخصمين في شِقٍّ، وكون الآخر في الشِّقِّ الآخر، بحيث لا يمكن أنْ يَلتقِيا، فضلًا عن أن يكون بينهما وفاق[1].

دلالةُ صيغة المفاعلة ﴿تُشَٰقُّونَ﴾:

صيغة المفاعلة إما للمُبالَغَة أو للمغالبة

كلمة الشّقاق تدلّ على الخلاف الشّديد كما مضى بيانه، والتّعبير بـ (شاقّ ويشاقّ) يدلّ على المبالغة، وكذلك كلّ ما كان سياقُه مشاقةً لله ورسوله[2] والمؤمنين أيضًا، كما في هذه الآية: ﴿كُنتُمۡ تُشَٰقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ فإن المعنى: كنتم تشاقّون المؤمنين، أي: تُعادونهم وتُقاتلونهم لأجلهم، "وصيغة المفاعلة إما للمُبالَغَة، أو للمُغالبة"[3].

سرُّ توجيه قراءة نافع ﴿تُشَٰقُّونِ﴾ بكسر النّون:

مشاقّة المؤمنين، كأنّها مشاقّة الله

قرأ نافع وحده: ﴿تُشَٰقُّونِ فِيهِمۡ﴾ بكسر النون وتخفيفها، وقرأ الباقون: ﴿تُشَٰقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ بفتح النون[4]، وتوجيه قراءة نافع أنّها على معنى (تشاقّونني)؛ لأنّ مشاقّة المؤمنين، كأنّها مُشاقّة الله[5]، وتفصيل ما حصل هو أنَّه عدَّى الفعل إلى المُضمرِ المنصوب؛ لأنّ المعنى عليه، ومتوجّه إليه، فأثبت ما أخذ به غيره منَ الكسرة التي تدلّ على الياء المفعولة، وحذف النون الثانية - تخفيفًا - ولم يحذف الأولى التي هي علامة الرفع[6]، وأمّا على قراءة الجماعة ﴿تُشَٰقُّونَ﴾ بفتح النون، فعلى إرادة الجمع[7].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شقو).
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 259.
(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 371.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 602، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162.
(6) الفارسيّ، الحجة: 5/ 45، وذلك عند كلامه عن القراءات في قوله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: 54] حيث أحال عليها في موضع: (النّحل)، يُنظر: الفارسي، الحجة: 5/ 59.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 199.

علة حذف مفعول ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾:

حذف المفعول في جملة ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ للعلم به[1]، والتقدير: ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ الأنبياءَ والمؤمنين في شأنهم بأنهم شركاءُ حقًّا حين بينوا لكم بطلانها[2].

حـذف العنصر للعلم بـه، مِن فصيح البيان

دلالة شبه الجملة ﴿فِيهِمۡۖ﴾:

الحرف (في) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۖ﴾، معناه الظّرفية المجازيّة[3]، فكلمة (في) هنا معناها المحل، أي: محل المشاقّة فيهم، أي: في عبادتهم وإلهيتهم فتتنازعون؛ إذ لا مكان للمنازعة؛ لأنها منازعة بين الخالق، وما هو أدنى المخلوقات؛ لأنّها حجارةٌ لا تنفع ولا تضر[4].

الـظـرفـيـة المجازيّة، ملمح في البيان مفيد

بلاغة الإيجاز بالحذف في السّياق:

في قوله: ﴿كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۖ﴾ مضافٌ محذوفٌ، والتّقدير: (تشاقّون في إلهيتهم، أو في عبادتهم، أو في شأنهم) [5]؛ ويُستنبط المعنى من كون المُشاقّة لا تكون في الذّوات بل في المعاني[6].

المُشاقّة لا تكون في الذّوات بل في المعاني

دلالة الفصل بالفعل ﴿قَالَ﴾ الماضي:

يبدو سرّ الفصل في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وما قبلها، في كونها جوابًا عنِ السؤال السّابق في الآية: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾؟ قد ابتدره الذين أوتوا العلم لمّا وجَمَ المشركون فلم يحيروا جوابًا، فأجاب الذين أوتوا العلم جوابًا جامعًا، لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عنِ الذين أشركوا شيئًا، وأنّ الخزي والسّوء أحاطا بالكافرين[7].

سـرُّ الـفـصـل، كـون الـجـمـلـة جـوابًـا عـنِ السّؤال السّابق (أين شركائي)؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4162.
(5) الشهاب، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 5/ 325.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.

وأمّا سرّ التّعبير بالماضي ﴿قَالَ﴾ فلِتحقُّق وقوع القول حسبما هو المعتادُ في إخباره ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 44] وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: 48][1].

سرّ التّعبير عن (العلماء) بالموصول دون الصّفة:

العالمُ الحقّ هو الّذي ينتفع بما أوتي من علم

عبّر عنهم بالموصول بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ولم يقل (قال العلماء أو العالِمون)؛ لمدحهم بالعلم الذي أوتوه، فانتفعوا به؛ بأن أضاء لهم طريق الحق، وكشف لهم طريق الغيّ، فلعل التّعبير بهذه الكلمة الطيبة ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وعدم التّعبير بلفظ: (العالمون) للتّنبيه على ذلك[2].

إيثار الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ دون غيره:

تحصيل العلم منّة مِنَ الله، وهبة منه وتوفيق

في التّعبير بلفظ ﴿أُوتُواْ﴾ دلالة على منّة الله عليهم؛ لأنّ تحمّلهم للعلم النّافع، ثم انتفاعهم به إنّما كان بتوفيقه جلّ في علاه، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾:

العالمُ ومَن ينتفع به محلّ مدح، في كلّ مكان وزمان

التّعريف في كلمة ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ بـ (أل) لإرادة الجنس، أي: جنس العلم؛ وذلك أنّ القرآن الكريم يُجلّ العلم من حيث هو، ويجل العلماء كذلك، ويمدح الذين ينتفعون بعلمهم، كما مدحهم هنا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾.

سرُّ العدول عن التّصريح بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

عدم تعيين المراد بالذين أوتوا العلم أفاد العموم

عُدِل عن التّصريح بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لإفادة العموم؛ إذ اختلفوا في تفصيلهم، فقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم العلماء، وقيل: هم الملائكة[3].

وفي إطلاق التّعبير وعدم تقييده بطائفة معينة ما يعزِّز أنّ المراد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 109.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 259.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 190.

عموم ذلك كله "فيمن أوتي العلم من الأنبياء، وعلماء أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم، ويُنكرون عليهم، وقيل: هم الملائكة"[1].

دلالة قول الذين أوتوا العلم الوارد في السّياق:

في التّعبير به تلطّف بالسّامعين، وإهانة للكافرين المخزيين

الفائدة في قول الذين أوتوا العلم: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي أنَّ الكفار كانوا يُنكرون على المؤمنين في الدنيا، فإذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة في معرض إهانة الكافر، كان وقْع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل، وحصول الشماتة به أقوى[2]، فضلًا عن كون حكايته تكون لطفًا لمن سمعه[3].

سرُّ التّوكيد بجملة من المؤكّدات في الجملة:

ما أُعدّ لهم يثير التعجّب من هوله ومساءته

أُكّدت الجملةُ بعدد من المؤكّدات هي: الجملة الاسميّة المصدرة بـ ﴿إِنَّ﴾ التّأكيديّة، والتّعريف بـ (أل) المفيد للقصر في ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾، والتّعبير بحرف الاستعلاء (على) الدّالّ على تمكنِ الخزي والسّوء منهم، واجتماع هذه المؤكِّدات في الجملة يُفيد معنى التّعجب مِن هول ما أعدّ لهم[4].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾:

إفادة القصر الادعائيّ، وأثره في المعنى

تعريف كلّ مِنَ ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾، و﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ لإفادة القصر، أي: قصر الصّفة على الموصوف، وهو قصر ادّعائي "لبلوغ المعرَّف بلام الجنس حدّ النّهاية في جنسه، حتى كأنّ غيره مِن جنسه ليس من ذلك الجنس"[5] أي: بجعل ما لعصاة المؤمنين لعدم بقائه، ليس مِن جنسه[6]، والغرض مِنَ القصر الادّعائي إفادة المبالغة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 522.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 199.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 227.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.
(6) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 326.

نكتة توسيط لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في السّياق:

إغاظتهم على ما كانوا فيه من قبل من عزّة زائفة

المقصود بهذا الظرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: هذا اليوم الحاضر الذي هو يوم القيامة؛ وسبب النصّ عليه وتوسيطه بين العقابين المتعاطفين، "الإشعارُ بأنهم كانوا قَبْلَ ذَلِكَ في عزّة وشِقاق"[1] زائفَيْن، فمتاع الدّنيا وزهوها قليل جدًّا، وفيه تحسيرٌ لهم، وتعريضٌ بحالهم.

دلالة عطف ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾:

الجمع بين أليم العذاب ومخزيه، من أشدّ العذاب

دلّ عطف ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ على الجمع بين هذين النّوعين من العقاب في آن، فهم يجمعون بين العذاب المؤلم، والهوان المخزي.

دلالة الجارّ ﴿عَلَى﴾ في السّياق:

الإبانة عن تمكّن الخزي منهم، واستعلائه عليهم

حرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ دالٌّ على أصل معناه وهو الاستعلاء، وغرض التّعبير به الدلالة "على تمكّن الخزي والسوء منهم"[2] وذلك للردّ على استعلائهم واستكبارهم على المؤمنين الّذي كان منهم في الدنيا، عندما كانوا يدعونهم إلى التّوحيد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ [الصافات: 35]، فجعل الله خزيهم وهوانهم جزاءً لاعتزازهم في الدّنيا بشركهم، واستكبارهم على المؤمنين وتعاليهم عليهم واستهزائهم بهم، فعايَنوا في هذا اليوم ما يستحقون منَ العذاب والهوان ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣﴾ [الجاثية: 33].

وجه التّعبير عن ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ باسم الفاعل جمعًا:

بيان عراقتهم ورسوخهم المهين، في الكفر المشين

آثر التّعبير عن كفرهم باسم الفاعل المجموع ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دون التّعبير بالفعل (الذين كفروا) للدّلالة على عراقتهم في الكفر،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 109، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 369.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 137.

وأصالتهم فيه؛ لكونهم "تكبّروا في غير موضع التّكبّر"[1] فكان الخزي والسّوء عليهم في هذا اليوم، وليس على المؤمنين الّذين كانوا يستهزئون بهم في الدّنيا ويسخرون منهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشريك والمثيل والنّدّ والشّبيه والنّظير:

نفي الشّريك، يقتضي نفي كلّ ما عداه من المفردات المقاربة، من باب أوْلى

المُماثلَة تثبت بالاشتراك في جَميع الأوْصاف، لكنَّ المثيل أخصُّها؛ لِأن المُماثلَة تَسْتَلْزِم المشابهة وزيادَة، والشبيه أعم منَ المثيل وأخصّ منَ النظير، والنظير أعم منَ الشبيه؛ إذِ المشابهة لا تَسْتَلْزِم المماثلة، فقد يكون شبه الشَّيْء غير مماثل لَهُ، والنظير قد لا يكون مشابهًا، والحاصل أن المُماثلَة تَقْتَضِي المُساواة مِن كلِّ وجهٍ، والمشابهةُ تَقْتَضِي ذَلِك فِي الأكْثَر، والمناظرة تَكْفِي فِي وجه[2].

وأمّا النّدُّ فهوَ المِثل المنادّ، من قَوْلك نادَّ فلان فلانًا: إذا عاداهُ وباعده ولهذا سُمِّي الضِّدّ ندًّا[3]، وقال ابن عاشور: والنِّد بكسر النون: المساوي والمماثل في أمر مِن مجد أو حرب، وزاد بعض أهل اللغة أن يكون مُناوئًا، أي: مُعاديًا، وكأنهم نظروا إلى اشتقاقه مِن ندَّ إذا نفر وعاند، وليس بمتعين لجواز كونه اسمًا جامدًا[4].

والشريك من الشِّرْكَةِ، وهي أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشيء، أو معنى[5]، وعرفها ابن فارس بقوله: الشِّرْكَةُ، وهوَ أنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أحَدُهُما، ويُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا فِي الشَّيْءِ، إذا صِرْتَ شَرِيكَهُ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 143، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 227.
(2) ابن حجر الهيتميّ، الفتاوى الحديثية، ص: 136.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 154.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 334.
(5) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).

والقرآن الكريم يُؤثر عادةً كلمة الشّركاء في محاورته مع المشركين ونعيه عليهم عدم الإيمان به، فينفي الشّركاء بطرق وأساليب متعدّدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [الرّعد: 33]، وأحيانًا يستخدم مفردها وهو الشّريك، فينفي المفرد، كما في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الإسراء: 111]، وفي إيثار القرآن الكريم هذا اللفظ، وتغليبه على غيره، نظرٌ إلى ما فيه مِن عمق الدّلالة على نفي ما هو أعلى منه، فإنّه إذا ما نفى الشّريك فقد نفى (الشّبيه والنّظير والنِّدّ) من باب أوْلى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»